القسم الثالث : المستقبل

الفصل الحادي عشر

الطرق القديمة والجديدة إلى ماندالاي

القوة الصلبة في بورما وفيما وراءها

في شهر شباط/فبراير من عام 2007، حين زار الرئيس هيو جينتاو إفريقية، تصادف أنني كنت في كل من نانجينج وجوهانسبيرغ في الأسبوع نفسه. وفي أثناء وجودي في نانجينج رأيت كيف أثنت وسائل الإعلام على جولة الرئيس الإفريقية بوصفها جزءاً من "الصعود السلمي" للصين على مسرح العالم. وكانت الرسالة الرسمية هي أن الصين كانت تأتي بالوظائف وبالرفاهية إلى قارة مهملة.

أما بيم بيول، الذي قابلته في جوهانسبيرغ بعد المرور في مطارات قليلة وأيام قليلة فيما بعد، فقد أعطاني وجهة نظر فيها فروق أكثر من ظلال المعاني عن الاستثمارات الصينية في إفريقية. وبيم بوتسواني وخريج حديث من مدرسة هارفارد للأعمال. وهو يعمل في صندوق رأسمال استثماري عالي المخاطرة لعموم إفريقية في جوهانسبيرغ. وبعد أن كان قد عاش وعمل في بوسطن، ولوس أنجلوس، ولاغوس قبل مجيئه إلى جونسبيرغ، فقد امتلك بيم بيول رؤية للعالم فريدة.

وحالما جلسنا تقريباً لتناول العشاء قال متعجباً: "أنا لا أستطيع أن أصدق أنني أدفع 6,500 دولار في السنة لأتعلم اللغة الماندرينية. فذلك مبلغ غير عادي من المال من أجل حضور فصول في اللغة في إفريقية!"[1] ولكنه طالب جيد لدرجة الماجستير في إدارة الأعمال، وبهذه الصفة كان قد درس على ما يظهر الرياضيات وقرر أنه كان يمتلك فرصة مرضية للحصول على عائد جيد من استثماره. "التبادل التجاري بين الصين وإفريقية سيكون سائداً جداً في العقود القادمة إلى درجة سيكون فيها مستحقاً لقيمته. وأنا أشعر

أنني أستطيع أن أعمل شيئاً ما استثمارياً مستثمراً متصلاً بالصين أو بالصين وإفريقية. النمو وحجم السوق ضخمان جداً إلى درجة يجب علي معها أن أنخرط مشاركاً".

هل سيكون الصينيون هم المستعمرين الجدد في إفريقية؟ هل سيضيفون قيمة إلى القارة أو سيستغلون ثروات إفريقية فقط؟ وعلى الرغم من أن بيول عبر عن قلقه بشأن إساءات الصين لحقوق الإنسان، فقد كان، على وجه العموم، ذرائعياً بشأن التهديدات الاقتصادية والفرص التي تأتي بها الصين إلى إفريقية. على الرغم من أن الصندوق الذي يعمل فيه "متنبه دائماً للتنافس الفعلي أو الممكن من الشركات الصينية"؛ لأن "الصين تصنع تنويعة واسعة للغاية من المنتجات على نحو يمكن الاقتدار عليه، فنحن عادة نعتبر الشركات الصينية مصادر محتملة للإمدادات والمواد الأولية".

وبشكل عام كان بيم متحمساً بشأن اهتمام الصين بإفريقية، قائلاً إنها "شجعت الحكومات الإفريقية على بناء بنية تحتية وتحسينها باستخدام شركات بناء صينية، وعمالة صينية، وتمويل صيني". وعلى مستوى شخصي قدَّر أن الصادرات المتزايدة من الصين قد خفضت سعر الملابس والأحذية، وأنه يستطيع الآن أن يحصل على طعام صيني في أي مكان في إفريقية تقريباً.

صعود الصين في إفريقية وفي غيرها قد تم تحقيقه إلى حد كبير من خلال ما يسميه علماء العلوم السياسية القوة الصلبة، وهي قدرة بلد على الإرغام وشق طريقه من خلال القوة العسكرية والوزن الاقتصادي. وقد صاغ جوزيف ناي، وهو عضو في إدارة كلينتون وعميد سابق لمدرسة كيندي للحكومة، صاغ تعبيراً مقابلاً هو القوة الناعمة بوصفه "القدرة على أن تحصل على ما تريد من خلال الاجتذاب لا الإرغام أو الدفعات. وهي تنشأ من جاذبية ثقافة بلد، والمثل العليا السياسية وخطط سياساتها"[2]. وفي الأزمنة الحديثة القريبة كان التوسع العالمي لقوة الصين الصلبة هو النتيجة لخطة سياسة الدولة المحسوبة المخطط لها مسبقاً والمنسقة، في حين أن نفوذ الهند في العالم كان قد تحقق إلى حد كبير من خلال القوة الناعمة. في الهند البريطانية كان إغراء "الطريق إلى ماندالي" موضع احتفاء من كيبلنج. واليوم يجري تعبيد طريق جديد إلى ماندالي ومده من قبل الصين، وهي تبني "طرقاً" أدبية ومجازية إلى النفط والغاز.

ومـع ذلك فمعظـم المشروعات التي استثمـرت فيها شركات النفـط الصينية تقع في بـلاد تعاني مشـكلات اجتماعية وعرقية جديـة، من مثل السـودان، ونيجيريا، وأنجولا، وكازاخستـان، وفنزويـلا. والأمـوال المتدفقـة إلى أجزاء مـن إفريقية مـن الصين أكثر مـن الأمـوال القادمة من جنـوب إفريقية، المصـدر الذي يُعدّ منطقيـاً أكثر من الصين. وبخصوص حقوق الإنسان، فقد رفعت الصين درجة استثمارها حين كانت الحرب الأهلية في السـودان، علـى وجـه الدقة، ثائرة والحالـة في دارفور قد تحولـت إلى أزمة. وفي عام 1999 كانـت مؤسسة الصين القومية للبترول قوة كبـيرة في الحفر في السودان. والشركة التي أمسكت في ذلك الوقت حصة بنسبة 40% من شركة النيل الكبرى للبترول والزيت، أرسلـت خـط أنابيب من صنع صيني إلى مسافة ألف ميل مـن جنوب السودان إلى ميناء علـى البحـر الأحمـر، ورفعت درجـة عملياتها حين أعلـن قائد الجيش الشعبي لتحرير السـودان أن عمال شركـة النفط سوف يُعـدون أهدافاً عسكرية مشروعـة. وجاء تهديد الجيش الشعبي لتحرير السودان بعد أن كان مئات من الناس قد قتلوا سابقاً، وكان أكثر من ست مئة ألف نسمة قد أجبروا على الفرار من بيوتهم[3].

وبرغـم الانتقادات الموجهـة إلى خروقاتها لحقوق الإنسان، فقد تفوق حضور الصين، طـوال العقود الخمسـة الماضية، بالتدريج وعلـى نحو مقنع على حضـور الهند في جنوب شـرق آسيا، وهي المنطقـة التي تضم بروناي الحديثة، وكمبوديـا، وإندونيسيا، ولاوس، وماليزيا، وبورما (مايانمار)[4]، والفلبين، وسنغافورة، وتايلاند، وفيتنام. وهذا الصعود إلى الهيمنة الاقتصادية هو بشكل خاص صعود مؤثر؛ لأن نفوذ الهند في المنطقة كان عند نقطـة معينة نفوذاً لا نظير له. وحالياً، يقيم ما بـين 30 مليوناً إلى 40 مليون صيني عرقاً في جنوب شرق آسيا. في سنغافورة مليونا صيني عرقاً يكوّنان تقريباً 80% من سكانها.

وأكثر من أي بلد آخر، تعكس بورما تماماً تسليم السلطة للصين من الهند. ففي بورما يبلغ عـدد المجتمع الصيني أكثر من مليونين. ومن الناحية الثقافية، يظهر هذا التغير في النفوذ على نحو خاص في مدينة ماندالي، التي تقع على مسافة متساوية من كل من الصين والهند. والسلع الاستهلاكية الصينية والمهاجرون الصينيون في كل مكان في ماندالي إلى

درجة قد يخطئ معها الزائر فيظن ماندالي مدينة صينية. والمعالم المذكِّرة بالحضور الهندي، مثل البيوت الفخمة التي بناها التجار الهنود الأغنياء، وأماكن العبادة الخاصة بالسيخ، كلها محيت محواً كاملاً. وكما هو الحال في بلدان جنوب شرق آسيا الأخرى، نتج الحضور الصيني في بورما لا من الهجرة فقط ولكن من جهد محسوب مخطط له مسبقاً تكفله الدولة لتأمين طرق فعالة بالنسبة إلى التكلفة وموثوقة لنقل النفط والغاز. تعطُّشُ الصين إلى الموارد وخوفها من استمرار اعتمادها على الطرق البحرية التي قد تغلق يجعلها راغبة في أن تستثمر في جنوب شرق آسيا.

بورما: وادي سيليكون من القرن التاسع عشر

جاسبال كور سنج، هندية غير مقيمة، لها شعر أسود ينسدل حتى كتفيها، وتتمتع بسلوكيات لبقة رشيقة، وهي أستاذة الإنجليزية في جامعة متشيغان الغربية. وسنج أيضاً هندية بورمية من الجيل الثالث. وعائلتها في الأصل من البنجاب، وهي ولاية الهند الشمالية التي يسكنها السيخ على نحو سائد، ورحلة أسرتها الأوديسية طوال قرن توازي التحول في بورما من النفوذ الهندي إلى النفوذ الصيني.

وصل جدًّا سنج إلى بورما عند منعرج القرن التاسع عشر، مباشرة بعد أن قهر البريطانيون بورما في عام 1886. وكما أخبرتني سنج "فالقصص عن أن بورما هي المكان الذي يمكن فيه كسب المال، كانت قد وصلتْ بشكل ما إلى الهند، ومع تحول الزراعة إلى عمل أشد خشونة في الهند البريطانية، فأنا أفترض أنهما وصلا يبحثان عن حياة أفضل"[5].

بورما القرن التاسع عشر كانت هي وادي سيليكون أيامها. وبالنسبة إلى الجنود البريطانيين، والمستعمرين المستوطنين، والإداريين، بدت الإمكانات بلا نهاية: فعدة عشرات من حقول النفط، ومناجم الياقوت، والياقوت الأزرق (السفير)، وحجر اليشم، وخشب السَّاج البورمي الممتاز، وأهمها جميعاً، دلتا إراوادي الخصيبة. وبوصفهم غزاة؛ نقل البريطانيون العاصمة من ماندالي إلى رانغون، ورسخوا تلك المدينة لتكون محطة فرعية للإمبراطورية البريطانية في الهند.

ولكـن مانـدالي مهمة، على كل حـال، للشعب البورمـي البوذي بشـكل سائد. ويعتقد البورميـون أن سيدهارثـا غوتامـا، مؤسس البوذية، تسلق هضبـة مانداليفي واحدة من سفراتـه الأربع الأسطوريـة إلى بورما، وتنبأ في الذكرى 2400 للبوذية، بأن مدينة عظيمة سوف تتأسس عند سفوح تلالها. وفي عام 1857، أصدر الملك ميندون، وهو بوذي مخلص، أمـراً ملكيـاً وضع أساس مدينة مانداليوأمر ببنـاء قصره وفقاً لعلـم الكون البراهمي البوذي ليمثل مركز العالم، وجعل جدران القصر الأربعة مواجهة للجهات الأربع الأصلية.

وعلـى خـلاف معظم المهاجريـن، استقر جدًّا سنـج لافي مدينة كبـيرة مثل مانداليأو رانغـون بـلفي المدينة النائية الشماليـة تونججي، عاصمة ولايات شـان. جدها لأبيها (ويدعـى دادا بالهندي) صار تاجـر قماش، وجدها لأمها (ويدعـى نانا بالهندي) صار خياطـاً. وأخبرتنـي سنج أن هذا "وضعهمـا في المستوى الأوسط، فلـم يكونا مثل التجار الهنود الأغنياء الذين يملكون بيوتاً في رانغون، ولا كانوا في أسفل مستوى مثل العمال غير المهرة، ولكن في موقع ما في وسط الطبقات البورمية تقريباً".

ومع حلول الوقت الذي ولد فيه والد سنج في العشرينيات من 1920، كان عدة آلاف من الهنود قد شقوا طريقهم إلى بورما. وبحلول ذلك الوقت كانت بورما قد استقرت بوصفها جـزءاً من الهند البريطانية. ولكـن كان هناك اتصال تاريخي أطـول بين بورما والهند. فالأطفـال البورميون في المدارس سيخبرونك أن بورما بـدأت حين أسس أمير هندي من الأزمنـة القديمـة مملكة في تاغيوانج، شمـالاً من مانداليمنذ عـدة آلاف من السنين، قبل أن تأتي البوذية إلى الوجود أيضاً. وكان البريطانيون قد نفوا الملك البورمي ثيبو إلى الهنـد ونفوا آخر إمبراطور مغولي للهند، بهادور شاه ظفر، إلى بورما[6]. وفي العشرينيات من 1920 كانت رانغون العالمية قد استقبلت مهاجرين أكثر مما استقبلت نيويورك: فكان 53% مـن سكان رانغون من الهنـود، و32% من البورميين، و8% مـن الصينيين، وكانت البقية من العرب، واليهود، والأوروبيين[7].

وكانت إحدى أبرز الجماعات الهندية هي ناتوكوتاي تشيتيار، وهي مجتمع تجاري جاء في الأصل من قطعة أرض تشيتناد مما يعرف الآن باسم الولاية الهندية الجنوبية لتاميل نـادو. وتشيتيار، وهـم في الأصل تجار ملح، أول من أحس بفرصة الكسب بلا مخاطر من

فرق السعر، وهو شراء الأسهم والسندات في سوق وبيعها فوراً في آخر سعياً للربح من الفرق بين الأسعار، وذلك في تمويل الأعمال التجارية في سيلان (سريلانكا الحديثة)، ثم بدؤوا يلحقون مؤسسات التمويل البريطانية في الملايا ومستعمرات المضائق، ووصلوا بورما حين وصل الجند والعمال إلى تيناسيريم مع البريطانيين. كان التشيتيار ممولين رئيسين لتحويل دلتا إروادي الخصيبة. وحين توسعت التنمية الزراعية لتضم التبادل التجاري والتجارة في المطاط، والرز، والأفيون، احتضن التشيتيار الطلب المتزايد على الائتمان وانتقلوا بالتدرج بعيداً عن أعمالهم التجارية في الهند الجنوبية ليرسخوا أنفسهم في المستعمرات الآسيوية، وكانت بورما بشكل أشد ما يكون تأثيراً هي التي تعلل ثلثي تمويل التشيتياري في كل أنحاء العالم[8]. ويكتب شين تيرنيل، وهو عالم يدرس تجارة التشيتيار في بورما فيقول: "بحلول عام 1930 كان التشيتيار المقرضون للمال قد امتلكوا جماعياً 750 مليون روبية من رأس المال الموظف في بورما في شكل قروض ثابتة وغيرها من الاستثمارات... وكان هذا الرقم يعادل كل الاستثمارات البريطانية في بورما مجتمعة"[9]. وهكذا برز الهنود التشيتيار بوصفهم العمود الفقري المالي لبورما وعملوا بصفة وسطاء بين البنوك الغربية وبين الزراع البورميين.

وعصر الهند الذهبي للتبادل التجاري، من مطلع القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين، ضم أكثر من بورما. فالتجار المارواري من ولاية راجستان بادلوا القنب والسلع في أوروبة بعد الحرب العالمية الأولى. ويشير المؤرخ كلود ماركوفيتز، في كتابه (العالم العولمي للتاجر الهندي، 1750 إلى 1947)، يشير إلى أن التبادل التجاري بين أوروبة والهند كان محتكراً من البيوتات التجارية البريطانية الكبيرة، ولكن تلك التجارة مع آسيا وإفريقية كانت بشكل رئيس في أيدي الهنود. وشملت التجارة الآسيوية أولاً الأفيون ثم القطن من الصين، ويَحْسب ماركوفيتز أن الشتات الهندي من التجار في عام 1830 من المحيط الهندي، والخليج الفارسي، والبحر الأحمر كان في عدده بضعة آلاف. وبعد قرن كان التجار الهنود والمستخدمون التجاريون في خارج الهند يعدون مليون نسمة، وكان 60% منهم في بورما، وفي سيلان، وفي الملايا.[10]

ولكـن هيمنة الهند في بورمـا كانت قد محيت عملياً في عقد واحـد من الزمان فقط. أسعـار الرز انهارت تقريباً مع بداية الكساد الكبـير. وزراع الرز وقعوا في إغلاق الرهن، أي منـع المدين الراهن من افتكاك الرهـن، واستولى التشيتيار على ضمانة الرهن، وهي الأرض. وبما أنهم كانوا الناس الوحيدين الذين امتلكوا المال، فقد كان التشيتيار يراكمون الأرضـ بوصفها جزءاً مـن ممارساتهم العملية التجارية المعتـادة. وفي ذروتهم سيطروا علـى ربع الأرض الممتازة في دلتـا إراوادي. فلا موجب للاستغـراب، أن التشيتيار بعدئذ تعرضـوا إلى الحـط من قَدْرهم في الساحـة العامة البورمية وذمـوا بوصفهم بلا قلوب، ومغتصبـين متطفلـين للأرضـ. وأدت التوتـرات في النهايـة إلى أعمال الشغـب الهندية البورمية في عام 1930.

وقريبـاً مـن ذلـك الزمن، في أثنـاء الحـرب الصينيـة اليابانية في عـام 1937، كان اليابانيون يتوسعون في الصين الشمالية بقصد التوجه جنوباً. وأنشأ البريطانيون، دفاعاً ضد الغزو الياباني، طريق ديان مايانمار، الذي يربط لاشيو في شرق بورما مع كونمنج في جنوب مقاطعة يونان من الصين. وهذا الطريق البالغ من الطول 717 ميلاً صار هو طريق الإمـداد الرئيس للحلفاء ويحمل المواد الحربية إلى داخـل الصين. ولكن رانغون سقطت بسهولـة أمـام الجيشـ الإمبراطوري اليابـاني، وفي أعقاب ذلك خـرج المجتمع التجاري الهندي من بورما خروجاً جماعياً.

جـاءت الحرب العالميـة الثانية إلى بورما في شكل جيش يابـاني يتقدم وفي شكل جند الولايـات المتحدة. فاليابانيون هاجموا بيرل هاربر في عـام 1941. وصار ما دعي المسرح الصيني، والبورمي، والهندي أمراً مهماً، على أساس نظرية أن انهيار بورما سوف يجعل الصـين، لا محالة، معرضة للخطر. وفي أعقاب الفظاعات الوحشية التي استحوذت على المملكة البوذية وسقوط رانغون في أيدي اليابانيين في عام 1942، غادر بورما أربع مئة ألف هندي، ومعظمهم يسلك طريقاً برياً خطراً إلى الهند. هلك ثمانون ألفاً أو ما يناهز ذلك في العملية. وبحلول نهاية عام 1942 كانت بورما كلها تحت السيطرة اليابانية.

ولم تفلت أسرة سنج من ويلات الحرب فأبوها وأمها الحامل وجدّاها لجؤوا من القنابل إلى الغابات في شمال بورما. ووفقاً لما روته قصص والديها، سقطت القنابل من دون تمييز على كل الأطراف. "وأي حلفاء؟ كما كان من عادة والديّ أن يقولا بغضب كانوا يقصفون بالقنابل كل واحد، لا اليابانيين فقط". كانت الأسرة تحفر عن الطعام في النفايات وتدخر الملح للتجارة، وأخيراً غادرت الأسرة إلى كلكلتا على قطار من رانغون. ومن كلكتا كانت رحلة طويلة إلى بلدتهم الوطن راولبندي (في باكستان الحديثة)، على بعد ما يقارب ألفاً ومائتي ميل. ولكن بدا أن مصير أسرة سينج كان قد ارتبط ارتباطاً لا رجعة عنه مع بورما. فبعد أن كانت الأسرة قد قامت بالرحلة المرهقة الصعبة من رانغون إلى كلكتا فإلي راولبندي وبعد أن كان جد سنج قد استقبل بالكثير من الحفاوة الشعبية البارزة من "الأصدقاء الهندوس والمسلمين على حد سواء" في بلدته الوطن راولبندي، فقد عاد جد سنج إلى بورما بعد عامين فقط فيما بعد. وفي هذه المرة كان الحافز هو تقسيم الهند، الذي وقع في الوقت نفسه مع استقلالها في عام 1947.

أراد ميهير سنج، جد سنج، أن يمكث في الهند، ولكن والدها أقنعه في نهاية الأمر بأن الوقت قد حان للذهاب. وقالت سينج: "قاموا بالرحلة ثانية إلى الهند، وعلى خلاف كثيرين آخرين، لم يهاجم قطارهم من الغوغاء. والمفارقة التي تبعث على التهكم هي أن الهند الآن صارت أرضاً غريبة بالنسبة إليهم وصارت بورما مألوفة، وهكذا ذهبوا عائدين إلى بورما".

ظلُّ نهرو المتميز بجاذبيته

في 4 كانون الثاني/يناير من عام 1948، كان يونيو unu، وهو بوذي مخلص وقومي بارز، قد أقسم رسمياً بصفته رئيس وزراء بورما المستقلة. وكان المنجمون البورميون قد صرحوا بأن ذلك التاريخ سعيد. ومشاعر السعادة أعلنت إنزال العلم البريطاني وصعود يونيو. ولكن العام الأول من حكم يونيو دمرته تسعة تمردات انفصالية قامت بها مجتمعات أقلية، مثل الكارين، وهم مجتمع مسيحي، ونشأت تلك التمردات عن المحنة التي صنعتها الأزمة الزراعية في الثلاثينيات من 1930. وكان رد فعل يونيو على التمردات

هو المباشرة في برنامج ضخم من التأميم على حساب التشيتيار مالكي الأرض بالدرجة الرئيسة. وأثبتت هذه الحركة أنها حركة شعبية ضخمة بين البورميين، الذين كانوا لمدة طويلة قد نقموا على المجموعة الهندية الثرية.

وعلى النقيض من ذلك ازدهرت أحوال عائلة سينج برغم العاصفة القومية. فعلى خلاف الأغنياء والبارزين التشيتيار، فهم لم يجتذبوا الانتباه إليهم. وكان أبوها، الذي صار الآن رئيس العائلة، قد أسس حانوتاً ناجحاً في مدينة تونججي. ووصفت سينج الحانوت بأنه يبيع "كل منتج نسائي يمكن تخيله إضافة إلى الأقمشة الجميلة من مانشيستر ومن أجزاء أخرى من أوروبة". وأضافت قائلة: "كان الطعام كثيراً، وأنا أتذكر أن والدي اشترى سيارة جديدة. وسمع والدي عن الممتلكات التي تم الاستيلاء عليها في رانغون من أيدي التشيتيار، ولكنه لم يكن قلقاً جداً بشأننا. وولايات شان الشمالية من بورما، التي تضم أقلياتها، كانت دائماً تحظى بالحماية من البريطانيين من الأكثرية البورمية". وكانت سينج بذلك تشير إلى الرأي الذي رأى أن البريطانيين خلقوا عن عمد صدوعاً بين مجتمعات الهندوس والمسلمين في مستعمرتهم الهندية ليجعلوا من السهل عليهم أن يحكموا.

وكان البريطانيون قد سمحوا لأقليات البلد العديدة أن تمارس حكماً ذاتياً محدوداً عن طريق تقسيم بورما إلى منطقتين. فبورما بالمعنى الحقيقي (ومنها أراكان وتينا سيريم) كانت محكومة من الحكم البريطاني المباشر، ولكن في المناطق التي كان فيها البورميون أقلية، ومنها مناطق الهضبة الشمالية التي شملت ولايات شان وولايات كارين، والمجموعات القبلية في كاشين، وتشين، وهضاب ناغا، فقد سمح للقيادة التقليدية أن تبقى، ولكن ذلك تحت الإشراف البريطاني. وأضافت سينج: "كان هناك عدد من السيخ من البنجاب في تلك المنطقة. وكان لنا معبدنا الخاص بنا ولنا مسيرتنا الخاصة بنا. لقد عشنا حياة طيبة".

نهرو الذي كان صديقاً شخصياً ليو نيو، دعم النية الحسنة من الهند نحو بورما بأفعال محددة. فقام نهرو بصرف النظر عن ديون بورما للهند، وبشكل محدد، الأصول الرأسمالية المتروكة من الحكومة حين انفصلت الهند عن بورما في عام 1937. واختار

نهرو عدم التدخل نيابة عن التشيتيار والمصالح التجارية الهندية الأخرى التي حرمت من حقوقها في بورما، وصرح نهرو: "لن يكون هناك سياسة مطالبة بأي امتيازات خاصة للهنود، وخصوصاً الهنود الذين لهم مصلحة ثابتة... في الماضي وقع ضرر كبير على علاقات الهند مع بورما عن طريق إصرار الأعمال التجارية الهندية والمصالح الأخرى على المعاملة المتميزة"[11]. من وجهة نظر نهرو، كان هذا منسجماً مع سياسته في عدم الانحياز. ولتأسيس موقع يقف على مسافة متساوية من القوى الكبرى، أي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، لم تكن الهند تستطيع أن تصير قريبة على نحو خاص، أو بعيدة على نحو خاص، من الشؤون الداخلية لأي طرف آخر. وهكذا صار المنتج الفرعي الحديث لسياسة عدم الانحياز هو ميل الهند إلى دوام الابتعاد عن شتاتها.

وقدّر يونيو، وهو من قبلُ متراصف فكرياً مع معتقدات نهرو في الاشتراكية وعدم الانحياز، قدّر قرار رئيس الوزراء الهندي بألا يتدخل في شؤون الهنود البورميين. واستمر نهرو في دعم أفعال في مصلحة بورما المستقلة. وعلى سبيل المثال، وبرغم تردده، فقد ساعد رانغون ضد التمرد الشيوعي. وهذا ما حث يونيو الشاكر لنهرو على أن يقول: "من منتصف عام 1949، حين بدأت بنادق السيد نهرو بالوصول، تم أولاً احتواء تهديد العدو ثم استئصاله بعدئذ"[12]. ومدَّدت الهند عونها إلى الخمسينيات من 1950.

بالنسبة إلى الهنود البورميين، كان نفوذ الهند ظاهراً لا في الارتباطات البوذية فقط أو في تجارة التشيتيار، فكلا المثالين من نوع القوة الناعمة، ولكن نفوذ الهند كان أيضاً في الثقافة الهندية الشعبية، وخصوصاً الأفلام السينمائية باللغة الهندية الشعبية للغاية. وتتذكر سينج: "نهرو وغاندي كانا طبعاً مؤثرين بالنسبة لنا. وكان آباؤنا يفيضون بالمديح لهما ولقضية استقلال الهند. وفي الواقع حين زار سوبهاش شاندرا بوس (القائد الهندي الذي كان ينظم المقاومة المسلحة ضد البريطانيين) رانغون قبل الحرب، التحق أعمامي الكبار بجيشه القومي الهندي أيضاً13. ولكننا كنا صغاراً، وبالنسبة إلينا كانت الهند هي المناظر الجميلة من كشمير، وهي المناظر التي شاهدناها في الأفلام السينمائية. وأنا أتذكر على وجه الخصوص أفلام راج كابور (نجم الأفلام المحبوب)، وكانت نجاحاً كبيراً في الخمسينيات من 1950، وطبعاً النجم البنجالي جوي مخيرجي".

في عناق الصين

ربمـا كانت أجمل ساعة لنهـرو في مؤتمر باندونج الذي انعقـد في إندونيسيا، في عام 1955. وكان المقصـود من المؤتمـر تأسيس التضامن وحسن الرُّفقـة والصداقة بين تسع وعشريـن دولة آسيوية وإفريقية، كان معظمهـا دولاً استقلت حديثاً. ولما كانت تلك الدول غـير متيقنة مـن الكيفية التي تضع بها خطـط سياستها ضد الاستعمـار وهي حذرة من الغرب، فقد تطلعت إلى نهرو لتقديم الرؤية لها. ويكتب كاتب السيرة شاشي ثارور: "كان جواهر لال نهرو وهو في السادسة والأربعين وجهاً ساحراً من القومية الهندية تماماً مثلما كان غانـدي مثل مخلوق روحاني من العـالم الآخر... وكان يحيط به حضور ذهبَ إلى ما هـو أبعد من مجرد سحر الجاذبية الشخصيـة"[14]. وبكلمات جوزيف ناي، بدا وكأن قوة الهند الناعمة كانت قد رسَّخت "جاذبية ملحوظة ولكنها غير ملموسة"[15].

ولكـن نهـرو، على كل حال، لم يسرق العرض في بانـدونج. فذلك التميز ذهب إلى شو إن لاي، مبعوث ماو ووزير الخارجية وقد أعاد شو طمأنة البعثات بشكل متكرر في باندونج عـن القصد السلمي للصين، حتى في وجـه النقد المفتوح الموجه من المؤتمر إلى الشيوعية وادعائها عدم الانحياز. وخطابات شو المرتجلة في المؤتمر، وحقيقة أنه كان قد أحضر معه الطاهي الصيني الخاص به ليقدم الضيافة لضيوف مأدبته، كل ذلك جعل منه شخصية ناجحـة. ووفقـاً لما يقوله أميتـاف آشاريا، وهو مـؤرخ في الجامعة الوطنيـة في سنغافورة ومـدوِّن وقائع باندونج، لم يشعر نهـرو أن "العرض قد سرق منه"، ولكنه صرح بأنه "لم يكـن غرض الهنـد... أن تنشد تركيز الانتباه العام فيهـا. بعض الصحف، وخصوصاً في الهنـد، شددت طبعاً على دور الهند. ونحن شعرنا، على كل حال، أنه كان من الأفضل لنا أن نعمـل بهدوء. وبقيت الحقيقة، مع ذلك، وهي أن أهـم بلدين كانا حاضرين في مؤتمر باندونج هما الصين والهند"[16].

طبعـاً ما كان شو يستطيع أن يسـرق أضواء العرض من نهرو لو لم يكن نهرو قد سمح بذلـك. فنهرو كان قد أصر على أن باندونج من دون الصين سيكون مؤتمراً لا طائل تحته وكان قـد رتـب مع الطائـرة، واسمها أميرة كشمـير، من طيران الهنـد أن تحمل العديد

من الدبلوماسيين الصينيين إلى باندونج. (وقد فجرت الطائرة في الجو، واتهم بذلك مخربون تايوانيون.)[17]

والمفارقة التي تبعث على التهكم في باندونج هي أن المؤتمر كان قد سبقته وتلته أحداث سرقت فيها الصين الأضواء من الهند. فالصين، في محاولة منها لتأمين حدودها ونشر كتابها الشيوعي، كانت قد تحركت إلى التيبت في ذلك الوقت. وفي عام 1950 دخل جيش ماو، جيش التحرير الشعبي إلى مناطق خام الغربية (خامْس) و يو تسانج (دبو غتسانج) من التيبت، وهي مناطق مثلها مثل بورما اشتركت في الحدود مع الهند. ومن دون أن تبدي التيبت أي مقاومة تقريباً، احتلتها الصين في عام 1951. وفي شهر أيار/مايو من ذلك العام وقع ممثلو الدالاي لاما والصين الشيوعية اتفاقية من سبع عشرة نقطة على إجراءات من أجل التحرير السلمي للتيبت. ولأول مرة في تاريخ التيبت الممتد إلى ألفي عام، صارت التيبت جزءاً من الصين.

استيلاء الصينيين على التيبت أخذ العالم على حين غرة. فالعالم وهو لا يعرف كيف يرد، راقب ما يجري ليرى رد فعل الهند. وكانت مجلة الإيكونوميست قدَّرت الموقف فقالت: "نظراً إلى أن التيبت كانت قد حافظت على استقلالها الكامل عن الصين منذ عام 1912، فإن للتيبت دعوى قوية ليُنَظر إليها بصفتها دولة مستقلة. ولكن يجب على الهند أن تبادر إلى القيادة في هذه القضية. فإذا قررت الهند أن تدعم استقلال التيبت لتكون دولة محاجَزة بينها وبين الصين، فإن بريطانيا والولايات المتحدة ستعملان عملاً حسناً بأن تقدما الاعتراف الدبلوماسي الرسمي لها"[18].

ورفض نهرو مناشدات جاءته من وزير داخليته، ساردار فاللابهاي باتل، الذي كان حذراً من التوسعية الصينية. وأشار نهرو إلى أنه لا المملكة المتحدة ولا الولايات المتحدة كان لها أي مصلحة في إحراج الصين عن طريق الاعتراف بالتيبت وصرح نهرو: "نحن لا نستطيع أن ننقذ التيبت، مثلما كنا نود لو نفعل، ومحاولتنا نفسها لإنقاذها قد تجلب لها بالفعل اضطراباً أكبر. وسيكون من غير المنصف للتيبت بالنسبة إلينا أن نجلب عليها هذا الاضطراب من دون أن نمتلك القدرة على مساعدتها مساعدة فعالة. ونحن قد نكون

قادريـن على أن نساعـد التيبت على أن تستبقـي قدراً أكبر مـن استقلالها الذاتي"[19]. وهكـذا فقـد جاءت تصريحات شـو إن لاي المشـددة على السلام في باندونج بعد ورطة التيبـت. ونهـرو، بقيامه بزيارة إلى بيجـين في شهر تشرين أول/أكتوبـر من عام 1954، أكـد أن التيبت لم تكن في أي مكان على جـدول أعمال مؤتمر باندونج. واتفاقية البانشيل (المبـادئ الخمسـة) التي وقعها نهرو في مؤتمر باندونج تعهـدت "بالتعايش السلمي" مع الصين.

والمفارقـة الأخرى الداعية للتهكم عن باندونج هي أن المؤتمر تبعته الهزيمة العسكرية العنيفـة التـي تلقتها الهند مـن الصين في مناوشـات حدودية في عـام 1962. وما دعيت بالحـرب الصينية الهندية أدت إلى علاقات باردة جداً لأكثر من أربعة عقود بين الصين والهنـد، وأدت إلى إضعـاف مكانـة نهرو علـى نحو مؤثـر، وتركته في نهايـة الأمر رجلاً منكسـراً، وتركـت بلده وقد افتقـدت زهوها الذي كان لها بعد الاستقـلال. وبالنسبة إلى الهند على وجه الخصوص، شكل عام 1962 ضربة ونقطة تحول في علاقاتها مع الصين، ضربة مازالت الهند تتعافى منها.

حـين كنت في المدرسـة عرضت الكتـب المدرسية الهندية الحـرب الصينية- الهندية بوصفها مثالاً للازدواجية الصينية. على حدود الهند الشمالية، اكتشفت دورية استطلاع هنديـة أن الصينيـين قـد أكملوا طريقـاً تسير عبر منطقـة أسكساي تشـين من منطقة لاندهـاك من جامو وكشمير، وهـي الولاية الهندية في أقصى الشمـال المحاذية للصين. وبـدأت المناوشات تقع مباشرة، وفي شهر كانون الثاني/يناير من عام 1959 كتب شو إلى نهرو يرفض اقتراح نهرو بأن الحدود المعروفة باسم خط مكماهون لعام 1914، كانت هي الحدود الشرعية وأنكر شو أن تكون أي حكومة صينية قد قبلت في أي وقت مضى شرعية الخط بوصفه حداً. وبعد أن صاروا عاجزين عن الاتفاق على الأراضي المتنازع عليها على حـدود الهمالايا الممتدة على طول ألفـي ميل، هاجم الصينيون الهند في 6 تشرين الأول/أكتوبر من عام 1962.

بعد عقدين من الزمان وقعت على النسخة الصينية من القصة. محادثة عابرة مع عالم صيني بارز عن العلاقات الهندية في بيجين تحولت إلى حوار كالثلج برودة حين أحس الرجل بالسخط من روايتي للأحداث. وأشار إلى أن نهرو كان بليداً في رفضه اقتراح شو في عام 1959 بأن يقوم كلا البلدين بالتهدئة عن طريق سحب حراسهم إلى مسافة اثني عشر ميلاً عن خط السيطرة الحقيقي لتجنب الصدامات. وقامت الصين بالانسحاب من طرف واحد على كل حال، وذهب شو إلى دلهي لتسوية الأمور في عام 1960. وكرر نهرو القول إن خط مكماهون كان "ثابتاً ومحدداً وغير مفتوح للنقاش"، وهو تعبير كان عدد من الخبراء بالشؤون الصينية في جنوب شرق آسيا منذ ذلك الحين قد أشاروا لي عنه بأنه كان مؤذياً في الكيفية التي أغلق بها الحوار. وحين استمرت الخرائط الهندية تظهر الأراضي المتنازع عليها بوصفها جزءاً من الهند، قامت الصين بالهجوم الوقائي الاستباقي.

كتاب نيفيل ماكسويل (حرب الهند للصين) يوافق على هذا الرأي ويعرض نقداً قاسياً لعجز الهند. وهي لم تكن فقط الحرب التي ارتكبت فيها أخطاء عسكرية، بل تدخلت نيودلهي أيضاً مع الجنرالات على الأرض. وحين استسلم الهنود، عرضت المؤسسة السياسية الخسارة بوصفها نابعة من مجرد حجم الجيش الصيني والأرض الوعرة الصعبة في الهملايا. ولم يسأل أحد لماذا تم خوض الحرب في المقام الأول[20]. وفي أعقاب الحرب وافقت الحكومة الهندية على إجراء تحقيق بأسباب الحرب وبأسباب الهزيمة، ولكن الوثائق ذات العلاقة مازالت مصنفة سرية من طرف النظام الحكومي.

بالنسبة إلى الهند كانت حرب عام 1962 مأساة قومية مهينة. وبالنسبة إلى الصين كانت مجرد نزاع حدودي. أشار أحد طلابي الصينيين في هارفارد إلى ذلك فقال: "في كتبنا المدرسية كان هناك فقرة فقط أو فقرتان عن الحرب مع الهند في عام 1962، في حين كانت هناك صفحات وصفحات عن الحرب مع اليابان ومتاحف مخصصة للقوات التي ماتت في الصراع الياباني". وتراجعت الصحافة الهندية إلى هجوع متأمل مهين، وهي تسأل دائماً كيف أمكن لنهرو أن يصل بالموقف إلى الخطأ الشديد وما قيمة النوايا الحسنة غير الملموسة، وهي مصدر للقوة الناعمة، التي تمسك بها في وجه العدوان.

وفي الوقت نفسه أعطى موقف الصين نحو التيبت و"حل" الصين لمشكلة الحدود الهندية إشارة واضحة عن نواياها، بغض النظر عن المدى الذي قد تكون الصين قد وافقت فيه على السلام في باندونج. وفي عام 1950 عبرت وحدات من جيش التحرير الشعبي، تدعو نفسها متطوعي الشعب الصيني، عبرت نهر يالوجيانج إلى كوريا الشمالية. وكانوا يتصرفون في رد فعل على تهديد للصين الشمالية الشرقية تصوروه قادماً من قوات الأمم المتحدة (التي كانت تقودها الولايات المتحدة) الموجودة في جمهورية كوريا الشعبية. وهذا وازى تأكيد جيش التحرير الشعبي على سيادة الصين على التيبت، وهي منطقة كانت مستقلة بشكل جوهري عن الحكم الصيني منذ سقوط أسرة تشينج في عام 1911. وكان من الواضح أن الصين لن تتنازل عن الأراضي.

كان المقصود من ممارسة الصين للقوة الصلبة هو التعويض عن "قرن المهانة" الذي تعرضت له من الأجانب منذ حروب الأفيون مع أسرة تشينج. منذ ذلك الحين كانت الصين قد سلَّمت الكثير من الأراضي في معاهدات من جانب واحد. هونج كونج فُقدت للبريطانيين، وتايوان لليابان، والكثير من الشمال لروسيا. وفي الوقت نفسه تبخر في الحال الكثير من ممتلكات الصين وسقطت فيتنام، ولاوس، وكمبوديا للفرنسيين، وبورما للبريطانيين، وكوريا لليابان. واعتقد ماو ورفاقه أن الصين الشيوعية سوف تعيد بالتأكيد إحياء قوة الصين القديمة ورفاهيتها.

وفي عام 1962 استعرضت الصين قوة عضلاتها في بورما. في الوقت الذي كانت فيه حكومة يو نيو تنحل. ودفع الاضطراب الهائج يو نيو إلى أن يقوم بحركة غير معتادة، وهي دعوة رئيس أركان جيشه الجنرال ني وين، إلى تولي أمور البلد. وقام الجنرال أولاً بفرض الاستقرار في البلد وبعدئذ، بعد أن عاد يو نيو لمدة وجيزة إلى السلطة، نظم الجنرال انقلاباً ناجحاً. وأُعلنت بورما دولة اشتراكية يحكمها المجلس الثوري المشكل من كبار ضباط القوات المسلحة. وقد عجَّل صعود الجنرالات التقارب مع الصين. وفي حين كان يو نيو قد أوضح باستمرار كراهيته للصين بسبب دعمها التمردات الشيوعية في بورما، فقد كانت علاقات الصين مع ني وين أفضل على نحو مؤثر. وكان سفير فرنسا في رانغون

في ذلك الوقت قد قال ملاحظة تميزت بالبصيرة: "تبدو "الحكومة البورمية" متلهفة إلى ترويج فتح المرور بالسكك الحديدية وتنميته بين غرب الصين وبين العالم الخارجي باستخدام خط رانغون... ولا يبدو أنهم قلقون من التعقيدات اللاحقة في المستقبل بخصوص سيادة بورما"[21].

بعد أن صار في السلطة، قام المجلس الثوري الذي شكله ني وين بالتأميم الكامل للقطاعات الصناعية والتجارية من الاقتصاد وفرض سياسة عزلة دولية على بروما. وكانت أيام الهند في بورما معدودة. وأسدلت ستائر الخيزران على بورما، وتبخرت أرزاق الهنود. وأولئك الذين اختاروا أن يغادروا لم يكونوا يستطيعون أخذ أي شيء معهم. وبين عامي 1964 و1968 غادر بورما ما يقارب 150,000 نسمة[22] من الهنود. وبعد سنوات قليلة من تولي الجنرال ني وين السلطة، أمّمَ مجلسُه الثوري كل المِلكيات، وكانت نسبة 60% منها تقريباً مملوكة من الهنود.

حتى ذلك الحين، لم تكن الهواجس السياسية للجنرال ني وين قد أثرت في أسرة جاسبال سينج التي استمتعت بحياة مريحة نسبياً. وتتذكر سينج أن والدها في الستينيات من 1960، كان مقتنعاً، على الرغم من أن ني وين كان فعلياً في مدن مثل رانغون، قد استولى على كل الملكيات التي امتلكها الهنود وعلى الرغم من أن التخفيض البالغ الشدة لقيمة عملة كايات "يجرد الهنود من ثروتهم"، كان مقتنعاً أن تلك الكوارث لن تتكرر في تونججي. اعتقد والدها "أنهم معنيون بكبار الرأسماليين لا بنا. وقد أخبرنا ني وين بأنه لن يكون هناك أي إغلاق آخر للحوانيت". وعلى الرغم من آراء والدها، أدركت سينج علامات مشؤومة توحي أن الجو السياسي كان يتغير في بلدتها. وتذكرت أن بعض البورميين كانوا يقولون لها إن "الهنود تنبعث منهم رائحة سوداء" واستخدمت كلمة "سوداء" من البورميين لتحقير الفرس، والعرب، والأوروبيين[23]. ومدرسها، الذي كان دائماً لطيفاً لطفاً كاملاً معها، صار فظاً وانحط مستواه، وكان إخوتها يُضربون ويُهددون لأنهم يلبسون العمائم التقليدية للسيخ.

وفي العام 1965 تحققت أسوأ مخاوف عائلة سينج. "في أحد الأيام دخلت الشاحنات إلى الحانوت، وأنزلت الستائر على حانوت والدي، وذهب كل شيء كنا نملكه. هكذا تماماً. وأنا مازلت أذكر والدي، جاء إلى البيت وهو يبدو مهزوزاً منكسراً وقال لأمي، أخذوه كله، وكان رد أمي، سوف نبنيه ثانية".

وعلى الرغم من العلاقات الحارة السابقة بين ني وين والصين، فإن البورميين شنوا التمييز والعنف ضد الصينيين المقيمين كما هو ضد الهنود. وفي عام 1967 وصلت ذروة التوترات إلى أعمال الشغب. وقد أخبرتني سينج عن ذكرى واحدة رهيبة على نحو خاص فقالت: "كانت أختي طالبة في كلية الطب في رانغون وشاهدت أعمال الشغب في عام 1967. ووفقاً لما ذكرته كان الغوغاء قادمين بالفعل من أجل الهنود ولكن وبشكل ما، لا أحد يعرف تماماً كيف انحرفوا نحو الصينيين. وفيما بعد جيء بجسد واحدة من أقرب صديقاتها الصينيات جثة ميتة وأدخلت في مدرسة الطب. أما أختي فتحطمت". وفي رد على هذا العنف سحبت الصين معونتها التي كانت قد جاءت مع اتفاق عدم الاعتداء الذي وقعته مع بورما في أثناء "شهر العسل الصيني البورمي" في مطلع الستينيات من 1960. واستمر الصينيون في دعم التمردات الشيوعية ضد بورما.

ومع ما كان رد فعل أم سينج من الامتلاء بالأمل نحو مصادرة ممتلكات الأسرة، ومع أنهم كانوا يريدون أن يعيدوا البناء في بورما، لم يحدث ذلك. وبعد عامين من إغلاق حكومة ني وين حانوت والد سينغ غادرت الأسرة متوجهة إلى الهند.

وبحلول مطالع السبعينيات من 1970، كانت مكانة الهند الإقليمية والدولية قد أضعفت بشكل كبير. وسياسة نهرو للسلام لم تنتج أرباحاً من النفوذ. ونفوذ الصين ومكانتها نمت وهي تصدر إيديولوجيتها الشيوعية. وهذا لم يكن له دائماً ناتج إيجابي. ففي العديد من البلدان تحمل السكان الصينيون العرقيون أثر الصدمة الشديدة للعرقية والقومية. ومع ذلك، كان تصدير الإيديولوجية الشيوعية شكلاً من أشكال القوة الناعمة، وكان مدعوماً بالقوة الصلبة في شكل العون العسكري والمالي. وقد استخدم ماو الأمرين استخداماً فعالاً. وفي المقابل نشأ عصر نفوذ الهند بشكل رئيس من تصدير القوة الناعمة.

باجا يونان

صرحت سينج بالقول: "كان أبي واحداً من أكبر المهربين في تونججي"، صرحت بشكل واقعي، وهي تتذكر آخر سنتين لأسرتها في بورما، قبل أن يجبروا في النهاية على المغادرة. "كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي تُرك له ليفعله. فبعد كل شيء، كان يملك أسرة يطعمها. وهو لذلك تخصص في شراء وبيع ساعات اليد التي كانت تجد طريقها عبر الحدود إلى تايلاند وإلى الصين. وبدأ أخي بمساعدة والدي في الخارج. كان يأخذ ساعات يد قليلة في حقيبته على دراجته الهوائية ويبيعها أينما حصل على فرصة لذلك. ولكن في أحد الأيام، تماماً حين كان والدي سيعقد تبادلاً تجارياً، وصلت الشرطة. اختطف عمي الساعات من يده وتحمل اللوم. فحكم عليه بستة أشهر في سجن الأمن الشديد أقصى الشدة. وكانت تلك هي آخر قشة بالنسبة إلينا. وحين أصرت جدتي أن علينا أن نغادر إلى الهند، لم يكن أمام أبي، المتردد بل المهين، إلاَّ أن يوافق".

والعملية التي دُفع بها المجتمع الهندي إلى النشاط الاقتصادي تحت الأرض هي التي شكلت باجا يونان، وهو تعبير أستخدمه لأشير إلى الجزء الشمالي من بورما. وكانت هذه المنطقة قد وقعت بشكل متزايد تحت نفوذ المقاطعة الصينية الجنوبية يونان، وهي جارتها الشمالية المباشرة. وباجا يونان هي بالنسبة إلى يونان مثل باجا كاليفورنيا، الولاية الشمالية المكسيكية، لإلدورادو أمريكا، في كاليفورنيا، وكلمة "باجا" تعني الجنوب.

ووصفت سينج بيئة المهربين.

في الوقت الذي تغيب فيه الشمس، فجأة من اللامكان، ومثل مهرجان أو معرض، يظهر إلى الوجود سوق ضخم بديل لبيع المواد العتيقة. فأنت تستطيع أن تشتري كل ما تريده. والناس الذين يحملون المال لشراء كل هذا كانوا هم الناس الذين يعملون في الجيش البورمي. من غيرهم امتلك المال في ذلك الوقت؟ ولكن الكلمة التي تقول إن والدي كان منخرطاً في تهريب البضائع الممنوعة صارت معروفة ومن الناحية الرسمية كانوا يراقبونه باستمرار بعيون قريبة.

خبرة والد سينج وذكرياتها الخاصة عن التهريب وعن التجارة غير القانونية في السلع الممنوعة في أواخر الستينيات من 1960 كانت مجرد قمة الجبل الجليدي الطافي. وأهم أثر جانبي للعلاقات الصينية البورمية كان تأسيس تجارة غير قانونية نشيطة على طول حدودها المليئة بالثغرات من مطالع السبعينيات من 1970 وطوال الثمانينات من 1980. والمتمردون البورميون، والعصابات الشيوعية، والجنود البورميون والصينيون تحولوا من أعداء على أي من الجانبين من مناوشة حدود في النهار إلى تجار متعاونين غير شرعيين في الليل. فجأة يستطيع المرء أن يبادل السلع الاستهلاكية الصينية، التي تتنوع أصنافها من الأدوات المنزلية إلى الدراجات الهوائية، مقابل الياقوت والخشب البورمي. ووفق بعض التقديرات، في أواسط الثمانينيات من 1980، كانت التجارة غير القانونية في بورما تساوي ثلاثة أضعاف التجارة الرسمية، ومجمل التجارة غير القانونية (باستثناء المخدرات) كونت 40% من مجمل الناتج المحلي، أو ما يقارب 3 بلايين دولار سنوياً. وبالنسبة إلى بورما المشرفة على الإفلاس، قدم التهريب لها وسيلة للمعيشة. وبالنسبة إلى الهند فأرض المعركة الأرضية والإيديولوجية التي كانت تمثلها بورما قد تحولت إلى أرض معركة اقتصادية مع الصين.

في شهر أيلول/سبتمبر من عام 1988 تم سحق حركة ضخمة موالية للديمقراطية سحقاً عنيفاً من المجلس العسكري. وقد أدانت الهند هذه الأفعال، وصارت السفارة الهندية في رانغون مستشفى مؤقتاً للطلاب الذين أصيبوا في عملية القمع. ومنذ ذلك الحين لم تقدم الهند الدعم العسكري للنشيطين البورميين، وفي الوقت الذي تصرح فيه عن الدعم الإيديولوجي للحركة الموالية للديمقراطية، اتبعت سياسة فك الاشتباك في العلاقة مع الحكومة البورمية. وأما الصين، فقد دعمت، على كل حال، المجلس العسكري المناوئ للديمقراطية. وحين فرضت الولايات المتحدة العقوبات الاقتصادية وحظر الأسلحة ضد المجلس البورمي العسكري، وضعت الصين إبهامها على أنفها وهزهزت أصابعها لتسخر بذلك من المجتمع الدولي، وقوت علاقاتها مع بورما، متبادلة بذلك الاعتراف والنقد الصعب مقابل الخشب، والمواد الأولية، والوصول إلى الخطوط البحرية. التلطف إلى الجنرالات مثَّل ابتعاداً عن سياسات ماو في دعم التمردات الشيوعية في بورما. وفي جزء

من اتجاه أعرض، هبط الدعم المالي الصيني للحركات الشيوعية في كل أنحاء العالم من 4,5% من مجمل النفقات المالية في أواخر الستينيات من 1960 إلى 0,8% في عام 1979 [24].

وشهدت إشارات أخرى بأن الصين لم تبق تؤكد نشر كتابها الشيوعي. وعلى خلاف أمة ماو التي تقودها الإيديولوجية، امتلكت الصين نوعاً جديداً من الاشتباك يزوده بالقوة النجاح الاقتصادي المحلي. في عام 1982 نص التقرير السياسي لمؤتمر الحزب الشيوعي الصيني القومي الثاني عشر: "نحن، الماركسيين واللينينيين، نعتقد أن الشيوعية سوف تتحقق بشكل حاسم في كل أنحاء العالم في المستقبل، ولكن الثورة لا يمكن أن تستورد، ويجب أن يختارها الشعب في البلدان المختلفة بنفسه"[25]. وهكذا بدأت بيجين بتقوية نفوذها الاقتصادي لدعم خياراتها السياسية المفضلة.

طوال العقد التالي من السنين غطى التعاون العسكري والاقتصادي بين بورما والصين على أي علاقات سابقة بين البلدين وعلى التعاون الذي كان لبورما مع أي بلد ثالث. وتم تجاهل أي غضب أخلاقي من الديمقراطيات في كل أنحاء العالم. وغُمرت بورما بالمعونة الصينية، والسلاح، وبالسلع الاستهلاكية. وبحلول أواسط التسعينيات من 1990 كان المجلس العسكري البورمي قد حصل على الدبابات، والطيران، والمدفعية، والأسلحة الأخرى من الصن بقيمة قدرت بمبلغ 1,2 من بليون دولار[26]. وبحلول عام 1995 كانت قيمة التبادل التجاري بين الصين وبورما قد بلغت مبلغاً غير مسبوق هو 767 مليون دولار. ولكن إذا أخذنا في الحسبان التجارة بالسلع المهربة الممنوعة، فقد كان من الواضح أن إحصاءات التبادل التجاري الرسمي قد قللت إجمالاً قيمة مستوى التبادل التجاري بين البلدين. وفي المدة من أواسط التسعينيات من 1990 إلى أواخرها، كان واضحاً أن رواية جورج أرويل (أيام بورما) ورواية أميتاف غوش (قصر الزجاج)، اللتين قصتا حكايات الاستعمار البريطاني والهيمنة التجارية الهندية، كانتا روايتين منطويتين بشكل غريب ساحر، على مفارقة تاريخية متنافية مع تسلسل الزمان والأحداث. وحتى بورما القومية على نحو مخلص، بورما نفسها التي قذفت بالهنود إلى الخارج، واستهدفت البورميين

الصينيين في أعمال الشغب في أثناء الستينيات من 1960، بورما هذه وقعت تحت تعويذة سحر الصين، وصارت بورما باجا يونان.

في عام 1996 عادت جاسبال سينج فزارت بلدتها الوطن تونججي بعد ثلاثين عاماً. وقالت سينج: "ثلاثة أشياء أثرت فيَّ الطعام، والناس، والحوانيت كانت كلها صينية. وأراهن أن 99,9% من السلع المعروضة للبيع كانت قادمة عبر الحدود. وصُدمتُ، فبدلاً من باغودات المعابد البوذية التي كانت جزءاً بارزاً للغاية من المنظر الطبيعي، كان كل ما استطعت أن أراه هو باغودات المعابد الصينية هذه التي كانت مبهرجة بلا ذوق إلى حد بعيد. وسألت أصدقائي، 'كيف جاء الكثيرون جداً منهم إلى هنا؟ وكيف يستطيعون العيش هنا؟ فهم غير مسموح لهم بشراء الممتلكات'"، وهمس أصدقاء سينج في ردهم: "الصينيون في بورما يسمون أنفسهم، (وا)، ويزعمون أنهم قبيلة بورمية، وهم في الحقيقة مدرجون في قائمة في متحف تونججي".

وفي الحقيقة، ما شاهدته سينج هو عملية التحويل المستمرة لبورما الشمالية إلى يونان، أو يَنْوَنَتُها. فالهجرة غير الشرعية كانت واسعة الانتشار. وفي الحال، عبر مليون صيني إلى لاشيو، شمالي ماندالاي. ولاستيعاب سكان كان نصفهم من الصينيين، فقد أمرت لاشيو مدارسها الابتدائية أن تعلم بالدرجة الرئيسة باللغة الصينية[27]. وسكان ماندالاي، روح الدين والثقافة لبورما البوذية، كان خمسهم من يونان. ومن الناحية الاقتصادية كان ينظر إلى ماندالاي بوصفها مدينة صينية. وقد أشار أحد المحليين إلى أن "الصينيين يستطيعون أن ينتقلوا إلى ماندالاي، ولا يفترض بهم أن يذهبوا إلى هناك ولكنهم يفعلون. وهم يستطيعون أن يشتروا الأرض عن طريق شراء رخص إقامة بورمية، وهم يشترون بطاقات تسجيل من الناس الذين يموتون وهكذا"[28].

غياب العمل الهندي ظاهر للعيان في مكانة مبادرة كونمنج، وهي اتفاقية تعزز من حيث المبدأ التبادل التجاري للصين مع جنوب آسيا. وكانت المبادرة قد وقِّعَت بين الصين، والهند، وبورما في عام 1999 حين التقى ممثلو هذه البلدان في عاصمة يونان مدينة كونمنج. وكانت إحدى المسائل التي نوقشت هي إعادة إحياء طريق ستيلويل، ويدعى أيضاً

طريق ليدو، ويمتد إلى ما يقارب ألفاً ومئة ميل من كونمنج إلى ليدو، وهي محطة سكة حديدية في الولاية الشمالية من الهند، ولاية أسام[29]. وكان الجنرال في الجيش الأمريكي جوزيف ستيلويل، القائد الإقليمي في أثناء الحرب العالمية الثانية وشيانج كاي شيك رئيس الأركان. قد قاما ببناء الطريق ليكون مسار إمداد ليقوما بهجوم معاكس ضد القوات اليابانية المتقدمة التي كانت قد وجهت لهما ضربة قاسية في بورما. وما يقارب من 35 ميلاً من الطريق تسير عبر الهند، و650 ميلاً كانت في بورما، و400 ميل كانت في الصين.

وليس من المستغرب أن يكون القسم الهندي من الطريق في وضع يائس ولكن الصين طورت جزأها إلى طريق سريع من ستة مسارات يمتد من كونمنج إلى حدود بورما. وانسجاماً مع قدرتهم على بناء مدن بين عشية وضحاها في وطنهم، استثمر الصينيون مالهم وخبرتهم العميقة، في شكل مسّاحين، في تخفيض الجزء البورمي من الطريق إلى النصف من خلال سلسلة من الطرق المختصرة. وانسجاماً أيضاً مع خطط سياسات الهند الفوضوية غير المنتجة، أقر مسؤول هندي في الصين أنه لا يمتلك أدنى فكرة عن أي أطار زمني بالنسبة إلى الهند ستغير فيه موقفها، وهو بيان جاء مباشرة بعد أن كان سفير هندي قد طلب من بعثات كونمنج أن تكون صبورة[30].

ولكن لدى الهنود مهمة صعبة تنتظرهم في المستقبل. فالأرض وعرة، واهتمامات الأمن مسيطرة. وأحد الأجزاء المهمة من المشكلة هو أنه على الرغم من أن التبادل التجاري بين ولايات الهند الشمالية الشرقية وبين المقاطعات الصينية المحاذية لها في الحدود قد تعثر، فإن الهند الشمالية الشرقية نفسها مدمرة بالتوتر ومعزولة اقتصادياً عن بقية الهند. العنف القائم بين المجتمعات وتوتر الانفصاليين في أسام وبقية الولايات هو في آن واحد سبب ونتيجة لهذا الفشل في التطور[31]. وهكذا فإن مسار التبادل التجاري الأرضي المباشر لا يمكن أن يستخدم. فعلى السلع أن تسافر في أساليب ملتوية غير مباشرة من كونمنج إلى جانجيانج في مقاطعة غوانغدونج وبعدئذ في سفن إلى الهند من خلال مضيق مالاقا، وبهذه الرحلة تقطع أكثر من سبعة وثلاثين ألف ميل[32].

في الوقت الذي اعتمد فيه الهنود على القوة الناعمة للنوايا الحسنة والروابط التجارية للمهاجرين لممارسة النفوذ في بورما، فقد مارس الصينيون نفوذهم بكل مواردهم، ومنها العسكرية، والاقتصادية والثقافية. واحتوى الصينيون بورما بشيء قليل من كل شيء. وهذا المدخل كان مرئياً في مكان آخر في جنوب شرق آسيا، الذي زاد فيه التبادل التجاري أيضاً زيادة فعالة. وفي الوقت نفسه هبط نفوذ الهند.

في مطلع التسعينيات من 1990 أخذت خطة السياسة الخارجية للهند انعطافاً كاملاً إلى الخلف. فالإيديولوجية النهروية حلت محلها الواقعية الاقتصادية، وجنرالات المجالس العسكرية الذين سبق أن أدينوا جرى التودد إليهم. ومع ذلك، تبدو الهند مدمرة باللايَقين وباللاقرار، وانظر التوقف التام بخصوص مبادرة كونمنج، وبهذا تبقى الهند بعيدة خلف الصين في قدرتها على كسب بورما. وليس هذا في أي مجال آخر أظهر منه في مجال الطاقة.

طرق جديدة إلى ماندالاي.. النفط والغاز

بورما التي كانت سابقاً أرض معركة من أجل اليواقيت وخشب الساج، هي الآن لاعب إستراتيجي في المعركة من أجل مورد طبيعي آخر هو النفط، ومن أجل الوصول إلى الطرق المائية لنقله. بحلول عام 2020، ستكون نسبة 70% من احتياجات الصين إلى النفط مستوردة[33]. ومعظم نفطها يأتي من الشرق الأوسط ومن إفريقية عبر مضيق مالاقا، وهو طريق بحري يمكن إغلاقه من الولايات المتحدة، واليابان، وعلى وجه الاحتمال من الهند. وبورما، التي يمكن الوصول إليها براً وبحراً، هي آمن طريق بديل وهو الطريق الذي تتابعه الصين بجسارة. ففي شهر تموز/يوليو من عام 2004 ناقش رئيس وزراء الصين وين جياباو مع رئيس الوزراء البورمي خين نايونت موضوع بناء خط أنابيب من ميناء المياه العميقة في سيتوي في غرب بورما إلى جنوب غرب الصين، وهو مسار أقصر من مضيق ملاقا بمسافة 1,820 ميلاً بحرياً[34].

عملياً كل شركة طاقة صينية تعمل بنشاط في بورما. وقد بدأت شركة الصين الوطنية للبترول بإنتاج الغاز الطبيعي قبل عقد من الزمان. وأكبر ثالث منتج أوفشور

في الصين للنفط والغاز، وهي شركة الصين الوطنية عبر الشاطئ (الأوفشور) للنفط، بدأت بالتعاون مع مشروع النفط والغاز المملوك للدولة في مايانمار ومع شركتين أجنبيتين أخريين لاستكشاف كتلة على الشاطئ في المنطقة الغربية من بورما في عام 2004. وكذلك وقعت شركة الصين البتروكيميكال (صينوبيك)، وهي أكبر مصفاة للبترول مملوكة للدولة، وقعت أيضاً عقود مشاركة في الإنتاج في عام 2005 لاستكشاف النفط والغاز في الشمال من رانغون.

لم تتردد الصين في التعامل مع الدول التي يسميها الغرب منبوذة. وعلاقات الصين المستمرة مع بورما هي مثال نموذجي للكتاب المدرسي. وفي الحقيقة، بعد اعتقال العاملة النشيطة في الحقل الديمقراطي الحائزة جائزة نوبل للسلام أونج سان سو كايي من قبل المجلس العسكري في العام 2000، شددت الولايات المتحدة عقوباتها على بورما، وسمت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس بورما "مركز متقدم للاستبداد". والمفارقة التي تبعث على التهكم هي التبادل التجاري الثنائي بين بورما والصين الذي يقدر ببليون دولار يوازن على نحو مهم الخسائر الاقتصادية التي تسببها العقوبات، التي تقدر بمبلغ 200 مليون دولار تقريباً[35]. وفي عام 2003 أعلنت بيجين عن قرض بقيمة 200 مليون دولار مقدم إلى بورما من أجل تحسين القدرة على توليد الكهرباء في الوقت نفسه الذي وقعت فيه إدارة بوش قانوناً لأحدث جولة من العقوبات الاقتصادية تمنع بورما من تصدير المنسوجات إلى الولايات المتحدة.

والعقوبات تناسب عمالقة النفط الصينيين، وهذا موضوع مفتوح للنقاش، لأن العقوبات تضمن أن يكون ميدان اللعب خالياً من عمالقة النفط الغربيين في أماكن مثل بورما، وإيران. والسودان، وفنزويلا. وتستخدم الصين أيضاً موقعها ونفوذها في المنظمات الدولية، مثل الأمم المتحدة لتضغط من أجل مصالح الدول التي تسمى فيما عدا ذلك بالدول المنبوذة. وبالإضافة إلى ذلك فإن العديد من الدول التي تبيع النفط إلى الصين مثل: العراق، وإيران، والسودان، وأنجولا، ونيجيريا، تشتري أسلحة صينية. وتنظر الصين إلى بيع الأسلحة إلى هذه البلاد بوصفه طريقة لا لبناء روابط وثيقة فقط ولكن لتقليل فاتورتها لاستيراد الطاقة أيضاً[36].

والهند أيضاً ينقصها النفط. ولكن الثلاثي الصيني المكون من شركة الصين الوطنية للبترول، وشركة الصين الوطنية عبر الشاطئ (الأوفشور) للنفط، وشركة صينوبيك تتفوق بمناوراتها البارعة على الهند. وعلى سبيل المثال، منعت شركة نفط أنجولا المملوكة للدولة سونانجول منعت هيئة الهند للنفط والغاز الطبيعي المملوكة للدولة من شراء حصة شل البالغة 50% من سونانجول. وكان يمكن للصفقة أن تغل ما يقارب 5 ملايين طن من النفط الخام يومياً للهند من تاريخ عام 2008. والسلطات الأنجولية لم تعجبها صفقات شل المباشرة مع الشركة الهندية. والهند بعد كل شيء، عرضت 200 مليون دولار فقط من أجل تطوير السكك الحديدية، في حين كانت الصين مستعدة أن تدفع سعراً أعلى بما يصل إلى عشرة أضعاف من أجل عدة مشروعات في أنجولا. وليس من المستغرب لذلك أن تربح الصين الصفقة. "العون في مقابل النفط"، برز هذا بوصفه جزءاً من المدخل الصيني المتعدد الأبعاد نحو الدول الغنية بالطاقة. لقد ذهب القادة الصينيون إلى كل أنحاء إفريقية في الزمن الحديث. في زيمباوي، استثمرت الصين، وهي تتعامل مع نظام حكم بغيض أخلاقياً لروبرت موغابي، استثمرت في المعادن، والطرق، والزراعة، وزودت الحاكم الديكتاتور بالنفاثات وبالأسلحة الأخرى[37]. لا شَرْطِّية مرتبطة بهذه الصفقات، وخصوصاً من حيث الإصلاحات السياسية.

تي. ان. آر. راو، سكرتير سابق للبترول، والبيروقراطي الرئيس في وزارة الطاقة الهندية، لخص الأسباب التي تجعل الشركات الهندية معوَّقَة في مثل هذه المنافسة فقال: "في قضايا أمن الطاقة، إلى جانب الاعتبارات التجارية، من المهم بشكل متساو أن تحدد بوضوح العوامل غير التجارية والاعتبارات الجيو سياسية وأي مقارنة مع الأثمان المحضة التي يتم التوصل إليها على أساس الكتاب المدرسي لن تكون معقولة، فحين تقدم الصين عروضاً على سبيل المثال، فهي "تنظر" في القضايا "على أساس أنها" مصلحة قومية، أما في الهند، التي تكون فيها القاعدة هي التشريح الكامل لأي صفقة مالية بعد حدوثها، فمن الضروري دائماً أن تمتلك بعض المعايير التي يمكنها أن تصمد للتدقيق"[38].

الشريط الأحمر التنظيمي، أي الروتين، يزيد من عدم قدرة الشركات الهندية على التنافس. قبل أن يعزل سوبير راها، وكان يقوم بأعمال المدير المسؤول التنفيذي الرئيس لشركة النفط والغاز الطبيعي، وله خبرة ثلاثة عقود من الزمن في صناعة النفط، ظهر أنه يقضي وقتاً يحاول فيه أن يتفوق بمناورة بارعة على الصينيين، من دون نجاح، بقدر الوقت الذي كان يقاتل فيه المنظمين والسياسيين الذين كان يُزعم أنهم في فريقه. وتبدو خطط سياسة الحكومة في الصين منسقة بقدر ما هي في الهند غير موجهة ولا منسقة. والمشاجرة غير اللائقة التي وقعت بين راها ووزير الهند للطاقة عالجت ظاهرياً محاولة الوزير تعيين بيروقراطي في مجلس المديرين لشركة النفط والغاز الطبيعي. ولكن راها رفض ذلك على أساس أن التعيين يرقى إلى تدخل الحكومة. وقال: "شركات القطاع العام لا يمكن أن تُعامل مثل إدارات حكومية". وأضاف، "يُتوقع من الشركات أن تحقق أرباحاً، أما الإدارات الحكومية فلا". وشعر الوزير أنه ملزم بالتدخل ليضمن أنه كان يتلقى معلومات كافية من فريق راها، وأن راها لم يكن يتعامل مع شركة النفط والغاز الطبيعي بوصفها إقطاعيته الخاصة به. والنتيجة الصافية هي التهاود بالكفاءة التشغيلية القائمة على الترضية بالحل الوسط[39]. طبعاً ليس من النادر حدوث الانشقاق بين المنظمين والمشغلين، لاحظ شركة غازبروم في روسيا، وشركة بتروبراس في البرازيل، ولكن هذا الانشقاق يحد بشكل شديد قدرة الشركات الهندية على المنافسة مع الشركات الصينية. ولتعقيد المسائل أكثر، بعد أن تنحى راها عن منصبه في شركة النفط والغاز الطبيعي، لم تتم تسمية أحد ليحل محله. وبدلاً من ذلك، تحاورت الفئات السياسية حول من يجب أن يعين بمنصب المدير التنفيذي المسؤول الرئيس للشركة.

يبدو أن الهنود يتفقون مع الصينيين على أن البحث عن نفط الإنصاف، أي تأمين مواقع منصفة في حقول النفط في كل أنحاء العالم، هو الطريق الوحيد للاحتراس ضد الندرة في النفط. وكان المستكشف المبكر لهذا المدخل هو فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية. ففرنسا عانت فقدان مواردها الطبيعية الخاصة، وكانت البئر الوحيدة على أراضيها الوطنية في بيشلبرون في الألزاس، وكانت قد اكتشفت في عام 1745 في أيام لويس الخامس عشر، وقد كشفت فرنسا عدم حصانتها من ناحية الطاقة في أثناء سنوات

الحـرب، وذلك عن طريق الاعتماد اعتمـاداً وحيداً على شركات النفـط الأمريكية. بعد ذلك مولـت الحكومة الفرنسية محـاولات مشروعات توتال للنفط فيمـا وراء البحار[40]، وحـين أدركت أن ذلك لم يكن كافياً ليكون عازلاً لهـا ضد مناورات أوبيك في أزمة النفط في عام 1973، شرعت فرنسا في برنامج لتشجيع استخدام الطاقة النووية. وتعتمد فرنسا اليوم على المعامل النووية بنسبة 80% من طاقتها.

أخـبرني فيجاي كيلكار، وهـو سكرتير هندي سابـق للنفـط، أن كلا البلدين الصين والهنـد كان ببساطة يقلد هذه السابقة[41]. ولو كانا قـد امتلكا الوسائل التقانية اللازمة، مثل فرنسا التي كانت قد استفادت من تقليد طويل في البحث في العلوم النووية، لربما كانا قـد تابعا الخيار النووي. ولكن كيلكار يعتقد أن الصـين والهند ينبغي ألا تشعرا بالإلحاح لتؤسسـا بوضوحٍ نفط الإنصاف، ولكـن أن تعتمدا على آلية السوق بدلاً من ذلك من أجل الحصـول على النفط. وفي رأي كيلكار إما أن تدفع من أجل الحصول على النفط وفق ما تحتاج إليه وحين تحتاج إليه، أو أن تدفع من أجله مقدماً حين تحصل على موقع الإنصاف في حقل نفط. واقترحَ أن الهند، وهي واقعة بين بعض أضخم احتياطات الغاز الطبيعي في العالم، سوف تتحرك قدماً نحو الاعتماد على الغاز الطبيعي، وبذلك تجعل الهند الارتفاع الجياش المهتاج في الطلب من أجـل النفط ارتفاعاً غير ضروري. وقد تترك اقتصاديات الغـاز الطبيعي المشتري للغاز أقل عرضة لخطـر الندرة من المشترين للنفط. وبائع الغاز أكـثر ارتباطـاً مع مشتر معين، وذلك بفضل خط أنابيب مـادي، مثبت في المدة المباشرة، ولا يمكـن نشر أدواته بسهولة في مكان آخر. أمـا النفط، في المقابل، فيمكن أن يشحن في ناقلات البترول إلى أي مكان، وبهذا يُلزم المشترين في كل مكان أن يقدم أحدهم عروضاً ضد الآخر من أجل الوصول إلى النفط النادر.

ولكـن السباق من أجل نفـط الإنصاف يستمر. فقدرة الصين علـى استخدام ثروتها واستعدادهـا لنشرها في أماكن تكون فيها شركات النفط العالمية الغربية مقيدة قد جعل للصين النفوذَ القائد في بورما وفي غيرها. ورعاية الصين مفهومة جيداً في شوارع بورما. "مادامت الصين باقية على هذا الشكل الصديق فلن يتغير شيء. فالصين قادرة على

أن تزود البلد بكل شيء تحتاج إليه من الإبرة إلى القنبلة النووية"[42]. وفي الوقت نفسه تطورت سياسة الهند النفطية من إدانة "الجنرالات" إلى التكيف معهم، وبهذا تكون الهند قد أخذت صفحة من كتاب الصين، أي قلدتها، وهي تستمر في فقدانها رسوخ القدم والثبات الذي أتقنه الصينيون على نحو كامل.

من القصائد إلى الطائرات

ابتداء من عصر أسرة هان (206 قبل عصر المسيح 220 من عصر المسيح) وبلوغ الذروة في أثناء عصر أسرة تانج (618-907)، كانت العلاقات بين الصين وبورما متسمة بالدرجة الرئيسة بالتبادل الثقافي. وأمير ما كان آنئذ يعرف ببلاد بايوقاد خمسة وثلاثين فناناً إلى الصين في زيارة للتعبير عن النوايا الحسنة، وقام الشاعران المشهوران باي جوايي، ويوان جين بامتداح "موسيقى بايو"[43]. وفي عصر أسرة مينغ (1368-1644) وعصر أسرة تشينج (1616-1911) أنشأ البلاط منظمة للترجمة ودعا العلماء إلى تعليم اللغة البورمية وترجمتها. وكانت بورما بلداً من أول البلاد غير الاشتراكية التي اعترفت بجمهورية الصين الشعبية، ودعت بورما، إلى جانب الصين والهند، إلى مبادئ التعايش السلمي الخمسة. والماريشال الصيني الراحل تشين يي نظم أكثر من عشرة قصائد يصف فيها زياراته إلى بورما. فعلى سبيل المثال قصيدة "إلى أصدقاء بورما"، تنشد، "على قمة نهر يقوم بيتي/ وعلى النهاية الأخرى بيتك أنت/ يُكِن أحدنا للآخر مشاعر لا نهائية / فنحن من نفس النهر نجلب ماء الشرب"100[44]. والقصائد المماثلة لهذه مازالت تنشد على نطاق واسع من الناس عن البلدين.

ولكن المشاركة في الشعر أدت منذ وقت طويل إلى تمويل التمردات الشيوعية، وبعدئذ إلى الإغراءات الاقتصادية المدعومة بالقوة العسكرية، وأخيراً إلى الهجرة الصينية من يونان إلى شمال بورما. والمدخل الصيني الظاهر نحو بورما يعكس عضلات الصين البارزة في المنطقة. وحتى الولايات المتحدة وجدت نفسها في موقف يجري فيه تجاوزها من مجلس تعاون شنجاهاي الذي ينسقه الصينيون، والذي يضم جمهوريات آسيا الوسطى المنتجة للنفط اليوم.

وسواء بالانغماس في التفاصيل الدبلوماسية الدقيقة، أو بتبادل الأسلحة الصينية في مقابل النفط من الدول المنبوذة، أو بالاستثمار في الكوبالت والنحاس في إفريقية الوسطى الممزقة بالحرب الأهلية، تقود الصين بمحفظة نقودها غير مقيدة بالأعراف السياسية الصحيحة للعلاقات الدولية. الخطاب الصيني اليوم، الذي يمنحها امتياز "الصعود السلمي" و"المجتمع المنسجم" في حين تستمر في العمل بحماسة غير محدودة في إفريقية التي مزقتها الحرب، يرجِّع أصداء سلوك الصين في عام 1955 حين اتخذت عملاً عدوانياً في التيبت وفي كوريا في الوقت نفسه الذي كانت فيه البعثات الساحرة في مؤتمر باندونج تنغمس في حديثها عن المشاركة السلمية.

obeikandl.com